

محمد عبده مُصلحٌ مُختلفٌ فيه

د. سعاد الحكيم*

مدّت السلطنة العثمانية ظلال أمنها على العالم العربي الاسلامي، فاستكانت شعوبه مطمئنة، ورتع ابداعنا الفكري في الغفلة قرونًا ستة •. انتهى معظم علمائنا وشعرائنا ومفكرينا بالتوليد فجعلوا الكتاب كتباً، يشرحون ويلخصون ثم يشرحون التلخيص ويلخصون الشرح •• وجعلوا القصيدة قصائد بالتشطير والتخميس •.

ازدادت سرعة تدهورنا نحو الجزئيات فلم تعد تشغلنا الشؤون العامة وتهزنا القضايا القومية •• جذب كل منا انتماءاته الى مركز شخصه وعاش في دائرتها سعيداً راضياً، نرى المؤلف يكتب اسمه على غلاف كتاب ألّفه فيحتل سطرين وكلما طال الاسم وتعددت الانتماءات شعر المؤلف بالاكْتفاء والرضى أكثر وليس نادراً ما نقرأ اسم مؤلف على الصيغة التالية : فلان الفلاني العربي أصلاً، البغدادي مولداً، الدمشقي منشأً، الشافعي مذهباً، الشاذلي طريقة وهكذا ••.

تفرقنا حتى كاد يلتصق كل منا بحبة رمل، ولم يوقظنا من رقدة مشاكلنا الفردية الا نفير تصدع الدولة العثمانية •• تنبّهت حواس مفكرينا حين رأوا الدولة تفزع الى الغرب تستقرئه ترميماً لجيوشها، وتحاول تقليده لتستقيم شؤونها المدنية (١) •.

انتصب الغرب في حاضرة الدنيا شاهداً على سقوطنا في الهامشية وابتعادنا عن مسار الزمان •• تجلّى الغرب مرآة حضارية تعكس جمود تقاطيعنا التي اغبرت منذ

* الدكتورة سعاد الحكيم استاذة العلوم الاسلامية في الجامعة اللبنانية • ألفت « المعجم الصوفي أو الحكمة في حدود الكلمة »، كذلك شاركت في كثير من الندوات واللقاءات الفكرية •.

مئات السنين ، وتحرك بالتالي حينئذ الى وجهنا التاريخي . الى دنيا كان المسلمون هم زمانها .

والتقط مفكرونا التحدي ، فلم يختلف اثنان منهم بأن « حالة العصر » تستدعي الاستنفار الكلي لكل قوانا ومقوماتنا ، وتدافعت الى ساحة المعركة الطروحات :

فريق رأى الخلاص في السياسة فثار ونادى بالوطنية حيناً ، والقومية حيناً آخر ، مستخدماً على الغالب الاسلام كمقولة ثورية . ثار هذا الفريق . واتهم كل الآخرين بالجبين والخذلان ، أو بالسعي وراء مفاهيم « طوباوية » لا قَدَم لها في واقع المسلمين . وفريق رأى الخلاص بتقليد الغرب فتسلم زعامة التقدم ونادى بالتطوير والتجديد ونعت كل الآخرين بالرجعية والجمود .

وفريق رأى الخلاص في الدين ، فتطلع الى حركات اصلاحية تصبو الى قيادة المجتمعات على أسس دينية ترتضيها .

في زحمة هذه التناقضات التي أبرزتها طبيعة الظروف الزمنية ولد الشيخ محمد عبده عام ١٨٤٩م (٢) ، تلقى تعليمه الأولي وبدأ حفظ القرآن وهو في السابعة من عمره ، في قريته « محلة نصر » من أعمال مديرية « البحيرة » .

ثم في سنة ١٨٦٢ م حملة والده الى « الجامع الأحمدى » بطنطا ليتعلم تجويد القرآن ، وبعد أن استكمل التجويد بدأ في سنة ١٨٦٤م بتلقي أولى دروسه الأزهرية . كان منهج النحو في « الجامع الأحمدى » يبدأ بشرح الكفراوي على الأجرومية ، ولكن بعد أن قضى محمد عبده سنة ونصف السنة لا يفهم شيئاً لكثرة الاصطلاحات النحوية والفقهية قرر ترك الدراسة ، هرباً من طريقة التدريس التي ارتفعت أمامه سداً في مواجهة الفهم والمعرفة ، وأثر الانصراف الى الزراعة مهنة عائلته .

وهكذا كان ، ففي عام ١٨٦٥ م عاد الى القرية وتزوج . ولكن بعد أربعين يوماً من زواجه ألزمه والده بالعودة الى « الجامع الأحمدى » ومتابعة طلب العلم .

في هذه الفترة ، فترة ثورة محمد عبده على العلم والتعلم وعالم الكتاب برمته ، دخل الشيخ درويش خضر حياته وأسهم في تغيير مسارها (٣) . والشيخ درويش خضر الى جانب كونه خالا لوالده هو رجل صوفي اجتمع بأتباع السنوسية في طرابلس الغرب ، وتشير بعض المصادر الى أنه شاذلي .

ولا يهمننا كون الشيخ درويش شاذلياً أم من أتباع السنوسي ، لأن أثره في حياة وتكوين محمد عبده لا يرجع الى تحصيله العلمي وخطه الصوفي ، بل الى نمط متوازن من شخصية تفردت بالعمق دون تعقيد وبالبساطة دون سطحية . الشيخ درويش هو الذي جدد رغبة عبده في العلم الحقيقي ، وأحيا الهمة في موات ارادته دافعاً اياه الى مجاهدة القشور للوصول الى الجوهر ، وعلى حد تعبير الشيخ عبده نفسه : لقد أخرجه في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد .

ذهب محمد عبده الى الأزهر عام ١٨٦٦م وكان بالأزهر يومئذ حزبان : شرعي محافظ وآخر صوفي ، وقد حضر محمد عبده دروس كل من الحزبين ، وان كان أظهر ميلا للشيخ حسن الطويل الصوفي الأصيل(٤) .

بقي محمد عبده في الأزهر ثلاث سنوات دون فائدة تذكر ، لم ينقطع خلالها عن لقاء الشيخ درويش (ت ١٨٧٣م) في الاجازة كل سنة ، وكان اللقاء يستمر حوالى الشهرين يستكمل فيهما معه ما بدأه .

وفي عام ١٨٧٠م قدم الأفغاني الى القاهرة ، فاتصل عبده به ولازمه ابتداء من ذلك العام .

وقد كان الأفغاني ديناميكياً مليئاً بالمفاجآت ، لا يفهم لسلوكه نمط فيتكهن به ولا يعلم لانتماؤه هوية فنرجع اليه فيها . ويكفي أن نورد حادثتين تتلامح فيهما قسما شخصيته .

الحادثة الأولى : يرويها تلميذه عبدالرشيد ابراهيم يقول : كان أول اجتماعي بجمال الدين في بطرسبرج عاصمة روسيا عام ١٨٨٩ . وبعد بضعة أيام أبدى الأستاذ رغبة في زيارة احدى دور التمثيل ، فلما اقترحت عليه « دار الأوبرا » سألتني أن أحجز له شرفة قريبة من شرفة القيصر ، فحجزت الشرفة ، وذهب الى الأوبرا بالجبة والقفطان والعمامة . . . وبدأ الرقص والغناء والتمثيل وانزلت الستارة .

ثم رفعت عن منظر جميل ساحر ، واذا بجمال الدين ينظر الى ساعته وكأنه نسي شيئاً ثم يقوم ويفترش جبهته ويستقبل القبلة ويقول بصوت جهوري نويت أن أصلي صلاة العشاء : الله أكبر ، واذا بالأنظار تتجه اليها في عجب ودهشة ، واذا بي أراني هدفا لنظارات النساء وحيرة الرجال . . واستمر الرقص والغناء والكل في شغل عن الرقص والغناء . . وجمال الدين يصلي وكأنه أمام الكعبة ، ثم رأيت القيصر والقيصرة والأمراء وقد التفتوا اليها ، والكل يتهايمسون فيما بينهم ثم طرق الباب ودخل الجنرال جريفن وبادرني بالسؤال عن معنى ذلك . . . قلت له : سله بعد اتمام الصلاة . .

ولما أتمها خرج الى الردهة قائلاً : قال نبينا عليه الصلاة والسلام : لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، فالله ألهمني أن أصلي في تلك الساعة وفي هذا المكان . . .

على أنني عنفت جمال الدين بعد خروجنا من دار الأوبرا ، وقلت له بصريح العبارة : لقد وضعتني في موقف حرج . . . فابتسم رحمه الله ابتسامته الساحرة وقال في هدوء : ماذا تريد مني ؟ ألم أبلغ كلمة الاسلام الى قلب روسيا . . فدع رسمياتك واعلم ان الاسلام لا ينتشر الا بمثل هذه الجراة .

والحادثة الثانية في الاستانة : أيام السلطان عبدالحميد . يقول الراوي نفسه : « دخل علينا ذات مرة أحد المتصوفين ، فلما حان وقت الصلاة نبّه (الصوفي) جمال الدين

الى ذلك (أي الى وقت الصلاة) ، فأهمله هدامراراً ، فلما ألح عليه الصوفي التفت اليه الأفغاني قائلاً : اذا مضت الصلاة لها قضاء ولكن ما لصحبتنا قضاء (٥) .

هذا هو الأفغاني الذي حرك سواكن محمد عبده وغيره الكثير من رجال مصر في ذلك العصر ، أمثال : عبدالكريم سلمان ، ابراهيم اللقاني ، ابراهيم الهلباوي ، محمود سامي البارودي ، أديب اسحق ، عبدالسلام المويلحي ، لطيف سليم ، عبدالله النديم ، وأخيراً سعد زغلول .

ومنذ أطل الأفغاني في عالم عبده أخبت كل نور ، فلم يتألق الا نجمه ، واذا عبده تابع لا متبوع ، نراه عند توجهه الى الكتابة في الجرائد والمجلات يصدر بما يملأ أذنيه من كلام الأستاذ . . . وها هو يعيد على طلبة الأزهر دروس الأفغاني . لقد نقل الأفغاني محمد عبده من السكون الى الحركة ، ومن العلم الى العمل ، ومن التنظير الى المشاركة بمصير الجماعة ، نقلة بعد ذاتها واجبة على كل صاحب فكر ، ولكن مشاركته هذه لم تسلم من الشبهة في بعض الأحيان .

اشترك عبده مع أستاذه الأفغاني في التنظيمات السرية التي أنشأها هذا الأخير بمصر ، دخل الماسونية ولم يكن قد ظهر بعد الأثر السياسي لمن في قيادتها من اليهود ، ودخل مع أستاذه في الحزب الوطني الحر الذي كان شعاره « مصر للمصريين (٦) » .

وفي سنة ١٨٧٨م عين مدرساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم . وعام ١٨٧٩ نفى الأفغاني من مصر ، وعزل عبده من مناصب التدريس وحددت اقامته بقريته .

عام ١٨٨٠ استصدر رياض باشا ، ناظر النظائر عفواً عن الامام واستدعاه ليعينه محرراً أول في الصحيفة الحكومية : « الوقائع المصرية » . فاستقطب عبده لذلك صحبه من تلامذة الأفغاني ، ودل بحق ان الكلمة هي نواقيس الشعوب .

في هذه الفترة ابتعد عبده عن التدريس وعمل بالصحافة والسياسة ، فاقترن اسمه بالأحداث التي عاشتها مصر في هذه الفترة التاريخية ، انضم مع الحزب الوطني الحر الى العراقيين بعد مظاهرة عابدين ١٨٨٠ ، وأسهم بدور فعال في هذه الأحداث من خلال مقالاته . . ألقى القبض عليه وسجن وحكم عليه بالنفي لمدة ثلاث سنوات .

ذهب الى منفاه بيروت أواخر ديسمبر سنة ١٨٨٢م ، وأقام نحو عام ، ثم لحق بأستاذه الأفغاني الى باريس في أواخر سنة ١٨٨٣ . وهناك شغل منصب نائب الرئيس في تنظيم « العروة الوثقى » السري ، وعمل مع الأفغاني في اصدار مجلة أسبوعية عربية هي العروة الوثقى ، التي توقفت بعد ثمانية عشر عدداً في ١٧/١٠/١٨٨٤ . ونعلم أنه دخل مصر سراً سنة ١٨٨٤ (٧) . .

بعد توقف « العروة الوثقى » عاد الى بيروت عام ١٨٨٥ ، وظل قرابة ثلاث سنوات اهتم فيها بالتدريس خاصة . جلس لتفسير القرآن ثلاث ليال في الاسبوع في مسجد

الباشورة ، وفي عشرينات رمضان في المسجد العمري الكبير ، ثم صار له مجلس في داره ، وكما يقول الأمير شكيب أرسلان : « يجتمع بحضرته علماء السنة ومجتهدو الشيعة وعقال الدروز والى جانبهم أساقفة النصارى وكانوا يرون التردد عليه أمراً طبيعياً ويجدون فيه مرجعاً عاماً (٨) » .

وفي بيروت دعتة جمعية المقاصد الخيرية ليعلم في المدرسة السلطانية الفقه والسيرة واللغة ، وكان ممن درس عليه فقه أبي حنيفة الأمير شكيب أرسلان وعبدالباسط فتح الله . اتسعت علاقاته في بيروت وانفتح على مختلف الطوائف ، فكان يستقبل عباس البهاء زعيم البهائية وان ناقضه (٩) . وأسس في بيروت جمعية دينية سرية من أهدافها التقريب بين الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والاسلام (١٠) .

مكث في المنفى نحو ست سنين ، وصدر العفو عنه وسمح له الخديوي بالعودة الى مصر بناء على توسط الأمير نازلي لمختار باشا « الغازي » ، أو بسبب الضغط البريطاني كما صرح « اللورد كرومر » في كتابه مصر الحديثة (١١) .

عاد عبده الى مصر عام ١٨٨٨ ، حين أصبح كل شيء في يد الانكليز ، هم أصحاب السلطة الحقيقية في التعليم ، والأزهر ، والمحاكم الشرعية ونلاحظ أنه ظل طوال حياته بعد عودته يسالم الانكليز ويتعاون معهم (١٢) .

عين عام ١٨٨٨ قاضياً . وعام ١٨٩٥ أُنْعِمَ الخديوي بتأسيس مجلس اداري للأزهر وبقي عبده لمدة عشر سنوات من أبرز أعضائه ، وحقق بواسطته بعض الاصلاحات .

عام ١٨٩٩ عين مفتياً للديار المصرية ، أي رئيساً للهيئة الدينية بأكملها . فتمكن من اصلاح المحاكم الدينية وادارة الأوقاف ، كما ساعدت فتاويه في الشؤون العامة على تفسير الشريعة بما يتوافق مع حاجات العصر وقد كان « اللورد كرومر » لا يوافق على عزله من منصب الافتاء مهما كانت الأحوال ما دام موجوداً (١٣) .

توفي محمد عبده عام ١٩٠٥ على أثر اصابته بالمرض ، وكان قد استقال من منصب الافتاء .

★ ★ ★

□ من هو محمد عبده ؟

بدأ محمد عبده الكتابة وهو لا يزال طالباً بالأزهر الشريف ، خمسة وثلاثين عاماً مارس فيها الكتابة وتقلب ما شاعت له الظروف أن يتقلب أطل على الناس بأساليب شتى فأراه : خطيباً ، محاضراً ، صحفياً ، فيلسوفاً مصلحاً ، ثائراً ، معرباً ، محققاً تناولت كتبه ومقالاته ومحاضراته مواضيع مختلفة من فلسفة ، وعلم كلام واجتماع ، وسياسة ، وأخيراً تفسيراً للقرآن الكريم توقف فيه عند الآية ١٢٥ من سورة النساء . أسهم عبده في تحقيق كتب التراث فقدم مقامات بديع الزمان الهمداني ، وشرح نهج البلاغة للامام علي كرم الله وجهه عرب رسالة « الرد على الدهريين » التي كتبها الأفغاني

بالفارسية •• وارتبط عبده بمراسلات وصادقات مع مستشرقين وأجانب منهم :
جوستاف لوبون ، هوبرت سبنسر ، تولستوي، ولفرد بلنت •

جمع محمد عمارة في مجلدات ست الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، فجاءت صورة
ناطقة عن نتاج عصر النهضة ، تسجيلاً سياسياً واجتماعياً لذاك العصر الذي ظنه رجاله عصر
عماء شامل يفترض نهضة في كل المجالات •• عصر لم يختلف اثنان في أن الداء قد استحكم
من جسد الأمة والحكومات والشعوب ، لم يختلف اثنان على ضرورة الوعي واليقظة أمام
أحداث الكون • استيقظ عبده مع المستيقظين، ومنذ البداية أظهر ضعفاً تجاه المؤثرات ،
ترك صفحة عقله تطبع عليها بصمات من صحبهم ولازمهم • تتابعت حياته موزونة على
إيقاع أساتذة موجهين ، وإن كان قد استطاع في مرحلة متقدمة أن يخرج من التأثير المباشر
ويستوعبه بنوع من إعادة التوازن واسترداد الموقف الوسطي ، الذي يعبر عن حقيقة هذه
الشخصية التي كانت وراء مذهب اصلاحي عماده تربية توفيقية انتقائية •

تبع عبده الشيخ درويش خضر الصوفي فقبل « الفناء في الله » و « وحدة الشهود » ،
والمنازل العالية التي يرقى إليها الصوفي في حب الله (١٤) • أضاف « الذوق » و « الأدب »
- الصوفي المنشأ - إلى جملة المعايير التي استخدمها في أحكامه ، فكثيراً ما كان يقول :
« وهذا ينافي الذوق مع الأنبياء » أو يقول : « وهذا غير مقبول ذوقاً » • كما ميّز عبده
وبتأثير من الفكر الصوفي - بين صورة العبادة وروحها ، وأوجب على المسلم أن يحيا
عبادته بالحضور فيها • لأن عبادة من غير حضور هي صورة من غير روح • فيقول في
برنامج التعليمي المقترح : ••• حتى أوجبت على الأساتذة أن يقوموا برسوم العبادة حق
القيام أمام التلامذة ••• غير أنه يلزم أن لا يكون هذه العبادات والتعليمات الدينية
صوراً يابسة لا روح فيها ، كعبادة الجاهليين، بل يجب أن تكون معنوية حقيقية ، تخرق
حجاب الغفلة ، وتتمكن في باطن الإدراك (١٥) •••

تبع عبده جمال الدين الأفغاني ، رجل العمل السياسي والتنظيمات العلنية والسرية •
فتبنى اهتمامه بالأمور العامة وصب حميم ثورته على كل فروع العلوم الإسلامية •
هاجم الفقهاء واتهمهم بالنفاق والكذب ، هاجم الصوفية واعتبرهم مسئولين عن شيوع
روح التواكل والقعود عن طلب الرزق بين المسلمين • وكانت النتيجة أن هاجم العلوم
الإسلامية بعد أن حولها أمام الشعوب إلى مجموعة من السلوكات الشاذة المرفوضة
والممجوجة •

تبع عبده ، وهو خريج الأزهر الشريف ، خطأ سلفياً مستقى من تعاليم محمد بن
عبد الوهاب ، فانكر الشفاعة وحارب عقيدة الصوفيين في « الولاية » ، ورفضها بعد أن
حرفها وشوها على ضوء عبادة الجاهليين للأوثان فأخاف المسلمين بعبارة « أولياء من
دون الله » من جهة • ومن جهة ثانية حمل فكرة الولاية كل شعوزة الممارسات ، وانحرف
المفاهيم التي ظهرت في سلوكات العامة ، مفسراً هذه السلوكات في ضوء الشرك

والاشراك . . أنكر محمد عبده - وهو بذلك متأثر بتعاليم محمد عبد الوهاب - ضرورة المذاهب الاسلامية . وتنكر لعلماء الأمة من سلف وخلف فقال : « . . وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف وخلف » (١٦) ونسمح لأنفسنا بأن ننتقده هنا لسببين : الأول : ان المسلم اليوم ليس بمقدوره أن يفهم عن الله من كتاب الله وهؤلاء صحابة النبي ﷺ استوضحوه معاني قرآنية أشكلت عليهم . لم يتمكنوا من الفهم عن الله من كتاب الله وهم من هم لغة ولساناً من جهة ، ومن جهة ثانية كان القرآن يتنزل ومناسبة التنزيل حية في تاريخهم . والسبب الثاني : عندما يفهم كل انسان عن الله من كتاب الله تتعدد الرؤى بتعدد المفاهيم ويقع محمد عبده في مناقضة منهجه الاصلاحى الداعى الى وحدة التربية والتعليم الدينى .

وهكذا تلون محمد عبده بكل ألوان عصر النهضة وانما بقدر ، ووضع باحثي فكره أمام رؤية متعددة الوجوه تتعدد مثلاً عن عثمان أمين الى محمد عبده الفيلسوف محمد عبده الناقد ، محمد عبده والمنطق . وتوالى الدراسات عن محمد عبده تبحث آراءه في الاجتماع والسياسة والدين والفلسفة وعلم الكلام . كانت شخصية عبده تتفتت في النظريات فلا نكاد نلتمس له وحدة تجمع متفرقات نشاطاته . وان أجمع الدارسون على أنه كان مصلحاً تفرقوا ثانية ، وانهاالت الاضافات فهو : مصلح اجتماعي ديني سياسي أخلاقي وهكذا . . لذلك وقفت أمام شخصية محمد عبده وأعماله في محاولة لتحديد ملامح هذا المفكر ، غايته ومنهجه . ومنذ البداية ظهر عبده رجل الاصلاح الاجتماعى ، الذي ينصب اهتمامه على « مجتمع المسلمين » لم يهتم مصلحنا بالاسلام الا بالقدر الذي يفعل في المسلمين ، ومع ذلك لم يتوصل الى اقامة علم اجتماع اسلامي مستخرجاً أصوله وشروطه من القرآن الكريم والتعاليم النبوية العصماء . مع العلم أن تطور العلوم الاسلامية في مرحلة محمد عبده التاريخيية تمكنه من ذلك .

وننتقل مع مصلحنا الاجتماعى لنرى بعينه عيوب مجتمع المسلمين في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

★ ★ ★

□ عيوب مجتمع المسلمين في عصر النهضة :

لا يعدم عبده مناسبة يتوجه فيها بنقد الى المسلمين الا فعل . ها هو شرحة للقرآن يتحول الى منبر وعد ووعيد ، وها هي الآيات الكريمة تتحول عنده الى ذرائع لنقد مجتمع المسلمين في زمانه والدفاع عن المسلمين الأوائل حماة الاسلام وحملته . تتراوح لهجة محمد عبده في ثورته الهجومية بين السخرية حيناً ، والاحترق الوجداني حيناً آخر . . وكثيراً ما نجد أنفسنا نقول له : صدقت ، ولكن مهلاً لا تقفز من الجزئي المحدود الى استنتاج أو قاعدة تمس علوم الاسلام ككل .

نتوقف عند أهم عيوب المسلمين التي تعرض لها :

١ - نقد الفقهاء :

أطل محمد عبده على امتداد صفحاته مئات المرات ناقداً لحال الفقهاء والمجتهدين، ويمكن أن نرجع كل هذه الانتقادات على كثرتها الى أصلين اثنين :

الأصل الأول : اتهم عبده الفقهاء بأنهم يجعلون كتبهم أساساً للدين ، حتى انها قامت حجاباً بين أذهان الناس وبين القرآن والسنة . فالفقهاء متهمون بأخذهم بكتب الفقه بدل القرآن والسنة . يسخر مثلاً من الحيل الشيطانية التي يلجأ إليها مانع الزكاة . يجد أحدهم - على سبيل المثال - في كتاب : « يجب الزكاة على مالك النصاب اذا تم الحول وهو مالك له » فيعمد هذا الفقيه الى وهب ماله الى امرأته قبل يوم أو يومين من الحول على شرط استرداده ، ويعتبر ذلك فقهاً في الدين (١٧) .

هذه الغضبة التي غضبها عبده سبقه إليها الصوفيون ، ودونها الامام الغزالي في صفحاته ، ولكنهم لم يخلصوا من هذا « الاستحلال » الفردي الى رفض المذاهب الفقهية جملة . ولا يجرمهم الى رفض كتب الفقهاء كل مستفيد يستحل بظاهر نص من النصوص الفقهية حدود الله . ان كتب الفقهاء توضح الحلال والحرام وعلى الانسان أن يختار لنفسه ، فالداء في القارئ وليس فيما يقرأ . وقد حمل عبده المذاهب الفقهية مغبة تعصب اتباعها لها . فقال : « ان سبب الشقاق في الأمة راجع الى تقليد المسلمين للأئمة » (١٨) .

الأصل الثاني : اتهم عبده الفقهاء بالجمود والتقليد مؤكداً ضرورة الاجتهاد ، حتى يصل الى القول بأن الكافر هو المعاند الجامد (١٩) . ويرى عبده ، بحق ، أن الناس تحدث لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع لم ينص عليها في هذه الكتب الفقهية ، « فهل نوقف سير العالم لأجل كتبهم ؟ » (٢٠) .

وقد عوض عبده في زمنه هذا النقص فاندفع يجتهد في كل ما وصله من قضايا . ويشير محمد عمارة الى أن عدد الفتاوى التي أفتى بها الشيخ عبده بلغ عددها ٩٤٤ فتوى . تجاذب الاجتهاد عند عبده ركنان : حقيقة الدين من جهة ، ومستلزمات الزمان من جهة ثانية (٢١) يقول عثمان أمين : أشهر فتاوى الأستاذ الامام ثلاث :

الأولى : تبيح للمسلمين ادخار أموالهم وأخذ الفوائد والأرباح .

الثانية : تبيح لهم أن يأكلوا ذبائح غير المسلمين .

والثالثة : تبيح لهم أن يتزويوا بزي غير زيهم التقليدي .

٢ - نقد الصوفية :

وقف محمد عبده في موقع أقدام الشيخ درويش خضر وامتدح الصوفية . وجد انه لم تعرف أية من الأمم من يضاهاى الصوفية في تربية النفوس وتقويم الخلق ، ويرى انه يضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين (٢٢) يصرح قائلاً : « كل ما أنا فيه من نعمة في

ديني ، أحمد الله تعالى ، فسببها التصوف » (٢٣) . وظهر التصوف في جملة من تصانيفه حاصراً جملة الدين الاسلامي ، فيقول مثلاً: « وان الفقهاء لبعدهم عن التصوف الذي هو الدين ، جهلوا سياسة وقتهم وحالهم » (٢٤) . وظهر ملجأ من اليأس الفقهي ، يقول للشيخ رشيد رضا :

« اذا يئست من اصلاح الأزهر فانني أنتقي عشرة من طلبة العلم وأجعل لهم مكاناً عندي في عين شمس أربيهم فيه تربية صوفية ، مع اكمال تعليمهم ، وأستعين بك على ذلك ليكونوا خلفاً لي في خدمة الاسلام » (٢٥) .

ثم وقف محمد عبده في موقع أقدام محمد بن عبد الوهاب فحرّم الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف حسماً لكل ما داخلها من تحريفات وانحرافات شعبية واجتماعية . . . انتقد الكرامات ومردودها النفسي الاجتماعي . . . استنكر الممارسات والسلوكات المنفرة لبعض أفراد ومريدي الطرق الصوفية . . . تهجم على من فسد من المتصوفة وبث أوهاماً وخرافات لا تمت الى أصول الدين بصلة (٢٦) .

ولكنه قفز من مجموعة السلوكات المرفوضة والأفعال المنكرة الى تحريف معتقدات الصوفية والطنن بها . فحرّف مثلاً عقيدة الصوفيين في « الولاية » جاعلاً إياها شعبية من الربوبية وبالتالي شركاً جاهلياً بالله « أنكر أن يكون « الله أولياء » خصهم تعالى بالنصر من فضله ، مفرغاً الولاية من مضمونها الخاص جاعلاً إياها صفة لازمة للايمان . كل مؤمن هو « ولي الله » في مقابل أولياء الشيطان .

لقد تنكر عبده للولاية في مواجهة جهل مريدي الطرق الصوفية ، وغفل عن مجموعة السلوكات الشاذة التي نتجت في العصر نفسه عن ايمان الكثير من جماهير العوام بوجود الشياطين ، ومحاولاتهم المتكررة للاتصال بهم . جاء في تفسير المنار ج ٩ ص ٥٤٩ : « وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار أيضاً أن هؤلاء الماديين المنكرين لوجود الشياطين هم أشد فساداً وافساداً . انهم سكيرون مقامرون زناة لوطيون ، كذابون منافقون ، مرتشون سراقون . . . »

٣ - نقد علماء الكلام :

وقف عبده من علم الكلام موقف أئمة السلف فعالم الكلام هو مبتدع من جهة ، ومن جهة ثانية فان عالم الكلام هو عاص لله بالضرورة ، لأن علم الكلام يفترض تفرقاً في المذاهب يجرح وحدة الدين وأخوة الاسلام . ورد في تفسير المنار ج ٧ ص ١٣٣ : « وهذه الفلسفة الكلامية (هي) من دقائق النظريات الفكرية التي انفرد بالفوص عليها أفراد معدودون من أذكى الأمم ، فتفرقوا فيها واختلفوا لأن التفرق والاختلاف من لوازمها البينة ، فعصوا الله تعالى في نهيه عن التفرق والاختلاف في الدين . . . ولذلك استنكر جميع أئمة السلف علم الكلام وعدوه بدعة سيئة . ولا سلامة للمسلمين في دينهم . . . الا الرجوع في الدين المحض الى ما كان عليه السلف . . . وان ينبذوا جميع الأسباب والكتب التي كانت مثار الخلاف والتفرق وراء ظهورهم .

٤ - نقد العابدين :

رأى عبده أن الغاية من العبادات في الاسلام هو التهذيب الخلقي والروحي للانسان العابد ، فكل سجود لا يظهر في سمة الساجد ، وكل صلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر فهي صورة عبادة مردودة على صاحبها ، يقول : « للعبادة صور كثيرة في كل دين من الأديان ، لتذكير الانسان بذلك الشعور بالسلطان الالهي الأعلى ، الذي هو روح العبادة وسرها . ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه ... فاذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة » (٢٧) . يلتفت محمد عبده النظر الى ضلال المسلم في سعيه الى صور العبادات دون الغاية منها ، فيقول : « ضل المسلم بعد ذلك في طلب العلم ، فظن الرجل أن غاية ما يفرضه الدين منه معرفة الفرائض والوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها . وان آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة ، مما جعله الاسلام غاية العبادات ، فهو مما لا تتوجه اليه عزيمة ... اللهم الا أشخاص قلائل ... لا ترقى بهم أمة ولا تسمو بهم كلمة » (٢٨) .

ولم يكتف عبده بأن يلتفت نظر العابد الى ضلاله عن العلم المطلوب والغاية المرجوة بل جعل كل عبادة بحكم العادة نوعاً من الرياء ورد في تفسير المنار ٥٧/١ - ٥٨ : « خذ اليك عبادة الصلاة مثلاً ، وانظر كيف أمر الله باقامتها دون مجرد الاتيان بها . واقامة الشيء هي الاتيان به مقوماً كاملاً يصدر عن علته ، وتصدر عنه آثاره . وآثار الصلاة ونتائجها هي ما أنبأنا الله تعالى به بقوله : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (سورة العنكبوت / ٤٥) وقوله عز وجل « ان الانسان خلق هلوياً ، اذا مسه الشر جزوعاً ، واذا مسه الخير منوعاً ، الا المصلين » (سورة المعارج / ١٩ - ٢٢) وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ ، مع السهو عن معنى « العبادة » وسرها فيها المؤدي الى غايتها ، بقوله : « قويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » (سورة الماعون / ٧) فسامهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب الى الله تعالى المذكر بخشيته ... ثم وصفهم بأثر هذا السهو ، وهو الرياء ومنع الماعون . وذكر الأستاذ الامام أن الرياء ضربان : رياء النفاق وهو العمل لأجل رؤية الناس ، ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ، ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب اليه به ، وهو ما عليه أكثر الناس ... » .

٤ - نقد المجتهدين :

يقول عبده : هذا الجمود في أحكام الشريعة جر الى عسر حمل الناس على اهمالها . كانت الشريعة الاسلامية - أيام كان الاسلام اسلاماً - سمحة تسع العالم بأسره ، وهي اليوم تضيق على أهلها حتى يضطروا الى أن يتناولوا غيرها ... فلا ترى العارف بها من الناس الا قليلاً ... تعلم ما وصل اليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة ، لو سألت عن سببه ... لوجدته أحد أمرين : اما فقد العارف بالشريعة والدين ... واما عجز العارف عن تفهيم من سألته (٢٩) .

نشعر من هذا الكلام حسرة عبده على غياب المجتهد الحقيقي الضالع بأمور الدين والدنيا . المجتهد الذي يواكب علمه الشرعي تطور الحياة المدنية ، فيحل للناس ما انعقد من أمورها المعيشية . ويفتح لهم بذلك باباً شرعياً يدخلون منه الى طمأنينة أعماقهم ، بعيداً عن الاجتهادات الشخصية التي يحاول كل فرد أن يحل بها مشاكله الحياتية .

٥ - نقد القراء :

حتى القرآن يجد عبده اننا بعدنا عن الانصات لمعانيه ، مأخوذين بنشوة الأصوات ، يقول : « اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه ، فما بال قراء القرآن لا يقرؤونه الا تغنياً .. » (٣٠) .

٦ - نقد المسلمين :

تتوالى مقالات عبده في نقد المسلمين .. صرخات دوت في آذان معاصريه . ووصلت الينا سجلاً وصورة لأحوال المسلمين ومجتمعهم في أواخر القرن الماضي وبداية القرن الحالي . وكثيراً ما ينتقد العالم الغربي خلو المكتبة العربية مما يعرف عندهم باليوميات والمذكرات ، التي تؤرخ اجتماعياً وانسانياً لشريحة من الزمن . وتكاد تسد مقالات عبده هذا النقص ، اذ يتلامح خلال نقده حال المسلمين في تلك الفترة ونجمل نقده للمسلمين في النقاط التالية :

أ - طغت المصلحة الشخصية على اهتمامات المسلم فصرفته عن مجريات الأحداث العامة وأبقتة حبيس الأمور الشخصية يقول عبده : « انصرف المسلم عن النظر في الأمور العامة جملة ، وضعف شعوره بحسنها وقبحها ، اللهم الا ما يمس شخصه منها » (٣١) .

ب - تسرب اليأس الى قلوب المسلمين وفقدوا الأمل في أنفسهم وفي مستقبلهم ، يقول عبده : « أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين ، في اعتقادهم ، وهي بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم ، وظنهم أن فساد العامة لا دواء له ، وان ما نزل بهم من الضر لا كاشف له ، وانه لا يمر عليهم يوم الا والثاني شر منه » (٣٢) .

ج - سجل لنا عبده بلفتة موفقة استفحال داء فشا بين مسلمي زمنه وهو : التكفير والتفسيق ، يقول : « متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ، ورمي زيد بأنه مبتدع وعمره بأنه زنديق ! .. ان ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم » (٣٣) .

هذا مع أن الاسلام ينص في أصول أحكامه على البعد عن التكفير ، يقول عبده : « ... ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم ، وهو اذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان ، ولا يجوز حمله على الكفر .. » (٣٤) .

د - ظهر الكسل بين مسلمي العصر ، فقعدوا عن اللجوء بالأمم . ارجع عبده هذا الكسل الى فهم المسلم الخاطيء لقاعدة « التوكل » ولعقيدة « القدر » يقول :

« وعقيدة الاذعان للمقدر حسبت من أسباب الانحطاط عند الشرقيين عموماً ، وعند المسلمين خصوصاً ، لأنها نزعَت بالأُمِّ المعتمدة بها الى الكسل ، انتظاراً لما يأتيهم من الغيب . وبسطت أيدي أغنيائهم في الاسراف ، اتكالا على ما يسوقه عالم الغيب . ولكن ذلك سوء فهم ، سبَّبه سوء فهم أهل هذه العقيدة . الاعتقاد بالقدر مما يلهمك الصبر على ما نزل . فكان من حكمة الله تعالى أن يدعو الأنفس البشرية للايمان بقضائه وقدره ، ليكون مخففاً لجزعها اذا نزلت النوائب، مثبتاً لها عند ملاقات المصاعب . . . فهذه العقيدة الصالحة انقلب أثرها في أنفس المعتقدين بها الى فساد عظيم ، وليس العيب فيها ولكن العيب في الأذهان التي تلقته . كما قال جلال الدين الرومي : « كل ما يتناوله العليل يتحول الى علة ، فاللحم مع غزارة مادة التغذية فيه وتقويته لبنية المتغذي به لو تناوله المريض بحمى التيفوس مثلاً يقتله . ولا عيب في اللحم ، ولكن العيب في معدة المريض الأكل » (٣٥) .

هـ - انتقد عبده ما وصل اليه المسلمون من الجهل باللغة العربية حتى أضاعوا بجهلهم هذا فرصة فهم الشريعة يقول : « وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم ، وأقوال أسلافهم . وبدون ذلك (أي اصلاح اللسان) لا نصل الى فهم أسرار شريعتنا ، بل تسد في وجوهنا طرق الوصول الى الحقيقة منها » (٣٦) .

و - تعرض عبده لتلك الجماهير التي تنصرف عن المشاركة بسياسة الدولة ومتابعاتها انسجاماً مع فهمها الخاطيء لمعنى « طاعة أولي الأمر » . يقول : « أخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والانقياد لأوامرهم ، فألقى مقاليدته الى الحاكم ووكل اليه التصرف في شئونه ، ثم أدبر عنه » (٣٧) .

وينتهي عبده الى القول : « لم أر كالا سلام ديناً حفظ أصله ، وخلط فيه أهله . . لا هم فهموه فأقاموه ولا هم رحموه فتركوه » (٣٨) . اذن فالاسلام بريء والمسلمون جميعاً متهمون : صوفية وفقهاء ، مجتهدين وقراء ، محكومين وحكاماً ، عاصين وعباداً .

وهكذا يتعرى المجتمع الاسلامي على صفحات محمد عبده ، فاذا به ينكر على المسلمين تركهم الصناعة والتجارة والزراعة، وتركهم الدين حتى لم يبق منه الا تقاليد وعادات ، وتركهم الأوامر والنواهي الشرعية عند المصلحة ، وجهلهم بالتاريخ ، والاستدانة من الأجانب بالربا وضياع الثروات .

نرى المجتمع ماثلاً في عيني محمد عبده، لأنه يباشر أحواله وينتقده انتقاد المعاش للموضوع الحاضر، فهو الشاهد على الأحداث . فلنستمع اليه يروي كيف ارتفعت الثقة من قلوب الناس وأصبح المجتمع يعيش أبناءه فاقدين للثقة فيما بينهم . كأن يقرض المرء صاحبه المال على الثقة ، بل يستوثق منه باليمين انه لا يحدث الناس بالقرض . . ثم بعد خمس وعشرين سنة رأى بعض هؤلاء المحسنين لا يعطي ولده قرضاً طلبه الا بسند وشهود . وسأله عن ذلك فقال : لا أعرف سبب ذلك ، الا انني لا أجد الثقة التي كنت أعرفها في نفسي (٣٩) ؟

واذا دققنا النظر في جملة هذه العيوب التي يراها عبده نجد ان جميعها تظهر على مستوى العقيدة ، وهي نوعان : اما عقائد فاسدة ظهرت بأشكال حرمت التوحيد ، واما عقائد سليمة أخرجها عن استقامتها سوء فهم المسلمين لها . وكان من نتيجة هذه العقائد الفاسدة وهذا الفهم الخاطيء للعقائد السليمة أن تدهور مجتمع المسلمين حتى قال فيه « هانوتو » ما قال .

ولا يسعنا في ختام الكلام على نقد محمد عبده لمجتمع المسلمين الا أن نتوجه اليه ناقلين :

أولاً - غفل محمد عبده عن قرون خمسة عاشها الانسان المسلم في ظلام النسيان ، بعيداً عن أعين الكون ، شاطعاً بالخيال تارة ، وبالوهم طوراً ، بالتحجر حيناً وبالتعصب أحياناً عن أصول الاسلام . خرج المسلم من نور العلم في زمن القوة الى غيبة الادراك في زمن الضعف والتخلف . فكيف بعد هذه القرون الطويلة نحاسب العلوم الاسلامية وأئمة فقهاء المذاهب الشرعية في صورة سلوك الانسان المسلم الذي عاش في نهاية الدولة العثمانية ؟ كيف نطالب بالغاء علم اسلامي - استقر بجهد عشرات السنين - لأن المسلم الذي صادفه محمد عبده في زمانه أساء فهم كلام هذا العالم . . . وخاصة ان هذا الانسان المسلم - المتهم دائماً عند عبده - قد أساء فهم القرآن والحديث كذلك .

ثانياً - نظر محمد عبده الى الدين كظاهرة اجتماعية . ولأول مرة نخرج عن المؤلف في الدراسات الاسلامية . قدمت لنا العلوم الاسلامية نماذج عن دراسة العقيدة ولم تخرج هذه النماذج عن دائرة علم الكلام أو أصول الفقه أو التصوف أو الفلسفة . لكننا هنا نلتقي ، وللمرة الأولى مع دارس يتعامل مع العقائد الاسلامية كفاعلة في حياة المجتمع ، حيث تدلل العقيدة على مصداقية صوابها بالمرود الاجتماعي الذي توفره للمجتمع .

اننا أمام مصلح كادت كلماته أن تقول: ان الدين ضرورة اجتماعية . . كشف عن وظيفة اجتماعية للتوحيد ، فالتوحيد ضرورة اجتماعية لأنه يوحد بين منازع البشر وبالتالي يوحد مجتمعهم . . اننا أمام مصلح يقول ان «الاحاد مرض من الأمراض الاجتماعية» (٤٠) .

نستشعر خوفاً من هذه النظرة الاجتماعية للدين ، لأن النظرة الاجتماعية لا يمكن الا أن تفتت عموم الرسالة المحمدية وعالميتها ، فتلوننا بألوان المجتمعات المحلية من ناحية ، وتخضعها للطرفية الزمنية من ناحية أخرى .

□ الأركان الفاعلة في الإصلاح عند محمد عبده :

حالة مجتمع المسلمين في أواخر القرن التاسع عشر هزت وجدان محمد عبده ، واحتلت حدقة عينيه ، فجعلها قضيته . لذلك وقف في أرض المجتمع الانساني ونظر الى العلوم الاسلامية ، نظر الى كل القوى التي تتنازع السلطات في مجتمع المسلمين . ثم عمد الى كل سلطة يدرسها يحدد دورها ووظيفتها في قيام واصلاح هذا المجتمع .

وسنعمد الى تشبيه هذه السلطات بالقوى الانسانية من عقل ولسان ويد ، حتى يتضح للنظر قيمتها ومدى مشاركتها في المشروع الاصلاحي وتنحصر هذه السلطات في ثلاث : سلطة دينية ، سلطة مدنية ، سلطة العقل .

١ - السلطة الدينية - لسان الاصلاح :

الدين عند محمد عبده ليس ضرورة اجتماعية فحسب ، بل هو فطرة انسانية . فالانسان حيوان ناطق متدين بالطبع ، يقول : « ان الشعور بوجود اله يتصرف في الآكوان تصرفاً غيبياً فوق تصرف المخلوقات ، بما يكون من افضاء الأسباب الى المسببات ، قد عرف في جميع البشر ، من أدنى القبائل الهمجية الى أرقى شعوب المدنية ، فهو شعور يستوي فيه الحفاة العراة في صحارى افريقية وجزائر المحيط وفلاسفة اليونان في الماضي وفلاسفة الافرنج الآن ، وقد عرف في الفريقيين عن قدماء الأمم كالمصريين والكلدانيين والهنود ، كما هو معروف في هذا العصر » ومثل هذا الاتفاق بين الشرقي والغربي والشمالى والجنوبي في جميع الأزمان ، من غير تواطؤ ولا تقليد ولا تلقين ولا تعليم ، لا يعقل الا أنه فطري في البشر . . ان الانسان حيوان ناطق متدين بالطبع » (٤١) .

وهذا التدين الغريزي في الانسان تطور بتطور المجتمعات الانسانية ، فعندما كانت البشرية في طور الهمجية كانت أسيرة الوثنية وتعددية الآلهة ، ولم تعرف البشرية التوحيد الا عندما ارتقت العقول الانسانية بتطور الزمان وتخلصت من أوهامها وجهلها . كانت البداية في عبادة الحيوانات ، ثم ترقى البشرية فعبدت الكواكب ، حتى استعدت لفهم الحقيقة فأرسل الله النبيين ، يقول محمد عبده : « ان البشر في طور الهمجية كانوا يذهبون في ذلك الشعور الفطري بأساس الدين مذاهب من الوهم ، فكلما أشكل عليهم فهم شيء من أسرار الخليفة » عظموه وعبدوه . لهذا التوهم . . عبدوا كثيراً من الحيوانات ثم وضعوا لها التماثيل . . ولما ارتقوا من هذه المرتبة عبدوا السحاب والكواكب . . حتى استعدوا ، بالارتقاء الى فهم الحقيقة . حينئذ بعث الله فيهم النبيين مبشرين ومنذرين ، فكانوا هم المبينين لحقيقة الدين (٤٢) .

ويقول محمد عبده في تأكيد هذا التطور التاريخي للأديان : « ان مثل النوع الانساني كله كمثال شخص منه يخاطبه أبوه ومربيه في كل طور من أطوار عمره بما يناسب درجة عقله ، وحاجة سنه ، وكذلك عامل الله - عز وجل - النوع الانساني فخاطب قوم كل رسول بحسب درجة عقولهم . . وكلما ارتقى البشر جعل الله التشريع لهم أرقى منه حتى ختمه ببعثه خاتم النبيين ﷺ الذي هو دين سن الرشد لنوع الانسان . . (٤٣) » .

واضافة الى تطور الدين بارتقاء عقول البشر ، هل قال محمد عبده بوحدة الأديان ؟ يقول :

« الدين دين الله ، وهو دين واحد في الأولين والآخرين ، لا تختلف الا صورته ومظاهره ، وأما روحه وحقيقته ، مما طوّل به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو

لا يتغير : ايمان بالله وحده ، واخلاص له في العبادة ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير وكف اذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا . وهذا لا ينافي الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية ، ونعتقد أن دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الأصول ، ومن أهم وظائفه ازالة الخلاف الواقع بين أهل الكتاب (٤٤) .

وبعد أن تبين لنا مكانة الدين من التكوين الانساني نلاحظ أن محمد عبده قسم الموضوع الى قسمين فهناك أولا : الايمان بالله ووحدانيته ، ثم الايمان بالرسول . ثم ختمه بكلام آخر في التوحيد أولا ، ثم النبوة .

□ التوحيد :

يرى محمد عبده أن ايمان الانسان بوحدانية الله يعتمد على الدليل العقلي فقط . وذلك لأن المنطق يفترض أن الايمان بالله سابق على كل ايمان برسالة منه عز وجل . نحن - من جهة نظر محمد عبده - نؤمن بوجود اله أولا ومن ثم نؤمن بالنبوات والأنبياء ، الذين هم رسل الله : يقول : « فالاسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي » . وقد اتفق المسلمون - الا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم - على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوءات ، وانه لا يمكن الايمان بالرسول الا بعد الايمان بالله . (٤٥) .

التوحيد عقلي عند محمد عبده ، وهو ضرورة اجتماعية لأنه يوحد منازع البشر فلا يتفرقون في عبادات وتوجهات مختلفة . ومن ناحية ثانية ، الدين يولد أخوة دينية بين الناس تتمظهر بمساواة وأخوة اجتماعية . يقول : « قال تعالى على لسان يوسف :

(أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) يشير بذلك اشارة واضحة الى أن تفرق الالهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم ، وهو يذهب بكل قوتهم الى التعصب لما وجه قلبه اليه ، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، أما اعتقاد جميعهم بالله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفي ذلك نظام اخوتهم ، وهي قاعدة سعادتهم ، واليها مآلهم فيما اعتقدوا أن طال الزمان ، فكما جاء الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هادياً لوجه الحسن فيه » (٤٦) .

□ النبوة :

رأينا عبده توصل الى القول : أن الدين فطري والتوحيد عقلي . ولكن اذا كان الانسان يتوجه الى الله فطرياً ويوحده عقلياً ، فلماذا النبوات ؟ يتوجه الانسان الى الله حقاً لفطرته ، ولربما توصل الى توحيده بعقله ، ولكنه بعد ذلك لا بد أن يتوقف ليتساءل : ما هي الأعمال التي توصلني الى سعادة الدنيا والآخرة ؟ ما هي أحوال الحياة الآخرة ؟ أسئلة كثيرة لا يستقل العقل بمعرفتها . فيرسل الحق عز وجل لهذا الانسان معيناً من جنسه حتى يفقه عنه قوله ، أنبياء يحملون رسالات الهية حتى تحدد للانسان أسس الاجتماع

البشري وسبل السعادة الانسانية . يقول :عبده : « فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة . . . ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل اليه وحده ، وهو تفصيل اللذائذ والآلام ، وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما ، ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه ، لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها . . . لهذا كله كان العقل الانساني محتاجاً . . الى معين يستعين به في تحديد أحكام الأعمال ، وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية ، وما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة . . . ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من جنسه ليفهم منه أو عنه ما يقول . . . » (٤٧) كما يقول : « النبوة تحدد أنواع الأعمال التي تناط بها سعادة الانسان في الدارين ، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التي حددتها ، وكثيراً ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه . . وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ، ومجازى عليه بعقوبة كذا ، مما لا يستقل العقل بمعرفته ، بل معرفته شرعية . . . » (٤٨) .

باختصار ، فالرسل هم الذين يرشدون العقول الانسانية الى معرفة الله ، ومعرفة صفاته . يعرفون المؤمن حدود الله وشعائره . ومن أجل ذلك تظهر النبوة حاجة عقلية ، وجواباً عن هذه الأسئلة البشرية (٤٩) وبعد أن يؤمن الانسان بالنبوة يستسلم كلياً لأمرها ونواهيها ، محلاً اياها محل العقل في الاجتماع الانساني ، يقول عبده : « ان منزلة النبوات من الاجتماع في منزلة العقل من الشخص » (٥٠) .

يستمد النبي سلطة كلمته من السلطة الالهية ، فهو مطاع في كل حال ، النبي معصوم لا ينطق عن الهوى ، ضمان الهوي يفوق ضمان البشر العقلي ، وذلك ان العقل معرض للخطأ بآثر الوهم والهوى ، أما النبي فهو معصوم بكفالة الهيبة .

وتتنوع الرسالات ، فتتنوع عقائد الناس . وان أجمعت الأديان على التوحيد فانها تختلف في صور العبادات بحسب التطور الزمني للمجتمع الانساني . يقول عبده : « أما صور العبادات . . . واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة الله ورأفته في ايتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للامة والملاءمة للزمان . . . فلم يكن من شأن الانسان في جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب ، من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ من الكمال منتهاه » (٥١) .

وأدى الاختلاف العقائدي بين الأديان الى بروز وجه حيوي دينوي للدين . فأنتجت كل عقيدة جملة قيم ، هو ما نسميه ضمير الأمة من جهة ، ونفسية الأمة من جهة ثانية . فهذه مادية اليهودية ، وروحية المسيحية ، وعقلانية الاسلام . . لكل دين طبيعة تتسرب الى نفوس أبنائه وتحتل ضمائرهم ، هكذا تكون أخلاق الأمة وان كان أفرادها منهم الخبيث ومنهم الطيب (٥٢) .

وبعد أن ظهرت مكانة النبوة وانها عقل المجتمع البشري فما هي يا ترى سلطة الدين .

□ السلطة الدينية :

منذ البداية ينفي عبده أن تكون قد وقعت حروب بين المسلمين لأجل الاعتقاد ، بل كل الحروب هي سياسية وان أخذت الشكل العقائدي . يقول : « ٠٠ انه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة من العقائد أو على تركها ٠٠٠ وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد ، وانما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة ، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة ٠٠٠ » (٥٣) .

تتوالى نصوص عبده كثيرة رافعة كل شك في موقفه من أنه ليس في الاسلام سلطة دينية . فلا الخليفة ولا القاضي ولا المفتي ولا شيخ الاسلام يتمتع بسلطة دينية على المسلم ، تمكنه من الحكم على صحة عقيدته أو فسادها . ويكفي أن نورد أقوال عبده لتتضح فكرته :

« ٠٠٠ بأن الدين معاملة بين العبد وربّه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب فهو الذي يحاسب عليها . وأما المخلوق فلا تطول يده اليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل وينصح ويرشد الضال ٠٠٠ » (٥٤) كذلك يقول : « ٠٠ لم يدع الاسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه ٠٠ بل الإيمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله ، سوى الله وحده ٠٠٠ وليس لمسلم ، مهما علا كعبه في الاسلام ، على آخر ، مهما انحطت منزلته فيه ، الا حق النصيحة والارشاد ٠٠ فالمسلمون يتناصحون ، ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير ٠٠ فليس في الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه » (٥٥) . ويقول : « ليس في الاسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير ، والتنفير عن الشر وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين ٠٠ كما خولها لأعلامهم ٠٠٠ » (٥٦) .

ويذهب عبده الى أبعد الحدود في حرية الاعتقاد فيقول : « يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا للقاضي أو للمفتي أو شيخ الاسلام ؟ وأقول : ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامي ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه في طريق نظره » (٥٧) .

والملاحظ أن عبده أنكر السلطة الدينية هرباً من المفهوم المسيحي لها ، مع أن النموذج الاسلامي في الحكم نموذج مغاير . فلا يمكننا موافقة عبده على قيام تنظيم اسلامي على أنقاض رفض لمواقف في أديان أخرى ، فتتحول بذلك النظرية الاسلامية من فعل برز من النصوص الى « رد فعل » أوجدته الظروف . ويقع علماؤنا المسلمون تحت برائن كل تيار فتتعلطل جهودهم في الرد والمجابهة .

يقول عبده : « أصل آخر وهو السلطة الدينية التي منحت للرؤساء على الرؤوسين في عقائدهم وما تمكنه ضمائرهم . وقد أحكم هذه السلطة ماورد ٠٠ من انجيل «متى» اعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات ٠٠ فاذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص انه ليس بمسيحي صار كذلك ، واذا قال انه مسيحي فاز بها . فليس المعتقد حراً في اعتقاده ، يتصرف في معارفه كما يرشده عقله ٠٠ وهذا الأصل ان نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرناً طوالاً ٠ (٥٨) . كما يقول : « نشر البابا منشوراً في سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية ، أو جواز أن يفسر أحد شيئاً من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة أو يعتقد بأن الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه ٠٠٠ » (٥٩) .

ولم تتقدم أوروبا المسيحية الا بالفصل بين السلطتين الدينية والمدنية يقول الشيخ عبده : « كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية . فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد ، والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه ٠٠ وخول السلطة المدنية حق التشريع في معاملات الناس بعضهم لبعض ، وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، في معاشهم لا في معادهم ٠٠٠ » (٦٠) . فان كانت المسيحية قد فصلت بين السلطتين الدينية والمدنية ، فيذهب عبده الى أبعد من ذلك لأن الاسلام برأيه قد أطلق المسلم من كل قيد . يقول : « ٠٠ فان كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة (اشارة الى العبارة المسيحية أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ، فالقرآن قد أطلق الرأي من كل قيد بكلمتين لا كلمة واحدة ، قال في سورة البقرة : « لا اكراه في الدين » ٠٠٠٠ وقال في سورة الكهف : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٦١) .

ونود هنا أن نلفت النظر الى أن العلماء اختلفوا في آية « لا اكراه في الدين » . فالقول الأول ، انها منسوخة لأن النبي ﷺ قد أكره العرب على دين الاسلام وقتلهم ، ولم يرض منهم الا بالاسلام . وجاء أن هذه الآية نسخت بقوله تعالى « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين » (التوبة / ٨٣) روي هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين . والقول الثاني ، انها ليست بمنسوخة وانما نزلت في أهل الكتاب خاصة ، وانهم لا يكرهون على الاسلام اذا أدوا الجزية ، والذين يكرهون أهل الأوثان فلا يقبل منهم الا الاسلام هذا قول الشعبي وقتادة والحسن والضحاك (٦٢) .

أما الآية الثانية ، وهي قوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، فالأوثق فيها ما أشار اليه القرطبي من أن هذا ليس بترخيص وتخير بين الايمان والكفر وانما هو وعيد وتهديد . خاصة أن تكلمة الآية تفصل ما أعد الله تعالى للكافرين الظالمين من هوان النار ، وما أعد للمؤمنين من جنات عدن « انا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ، وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه » (الكهف

/ (٢٩) .

وهكذا نخلص من بحث سلطة الدين عند محمد عبده فنجد انها لا تتجاوز حق الوعظ والارشاد وتجملها عبارة واحدة: ان للدين سلطة « اللسان » في اصلاح حال المسلمين .

٢- السلطة المدنية :

يد الحق والاصلاح (المحافظة على الدولة ثلاثة العقائد)
يجد محمد عبده انه لا قيام للدين الا بالدولة . انها بمثابة اليد التي تبطش ، والميزان الذي ينصب في المجتمع لاقامة العدل وحفظ حقوق الناس فيما بينهم ، على أسس الشريعة . فالدولة أو الخلافة من هذا المنظور ضرورة اجتماعية تحفظ نظام الجماعة ، والخليفة هو واحد ، تنصبه الأمة ، وتكون صاحبة الحق عليه . وهو مطالب أمامها بالعدل والسير على نهج الكتاب والسنة يقول عبده: « لكن الاسلام دين وشرع فقد وضع حدوداً . . . فلا تكمل الحكمة من تشريع الاحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضي بالحق ، وصون نظام الجماعه . وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير ، فلا بد أن تكون في واحد ، وهو السلطان أو الخليفة (٦٣) » . ويقول : « ثم هو (الخليفة) مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد . . فاذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ، ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه . فالأمة - أو نائب الأمة - هو الذي ينصبه ، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدني من جميع الوجوه » (٦٤) .

ينفي محمد عبده عن الخلافة أي حق الهي . . كيف لا وهو شاهد على انهيار الدولة العثمانية في تركيا . . السيطرة الانجليزية في مصر . . شاهد على قلق المسلمين وتساؤلهم ، هل تقوم حكومات اسلامية أم تتفتت الدولة العثمانية فلا يرثها وارث . . وتلمح من نظرته الى وضع المسلم في حكومة غير اسلامية مداراته للانجليز ووصفه لسياستهم بالتسامح ، وهو بها خبير - يقول: « نعم نحن لا ننكر أن بين الأمم الأوروبية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها ، وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم ، وهي الأمة الانجليزية . . فلنا أن نقول ولا نخشى لائماً : ان هذه الخصلة الشريفة خصلة اطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون باداء فرائضه . . هي من أجل الخصال التي ورثها غير المسلمين عن المسلمين . . الاسلام السليم من البدع هو أستاذ الانكليز وعنه أخذوا هذه الخلة ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين ؟ يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين واداء ما يفرض عليهم من الضرائب ، ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمع به السياسة لا يفرقون بين دين ودين . . » (٦٥) .

ولكن ، وان كانت الحكومة ليس لها سلطة دينية على عقيدة أحد ، فانها تتمتع بسلطات قانونية مدنية واسعة حتى انها تتمكن من منع المباح شرعاً ، اذا ترتب عليه مفسدة . « اذا كان هناك حكومة اسلامية فان للامام أن يمنع المباح الذي يترتب عليه مفسدة ما دامت المفسدة قائمة به والمصلحة بخلافه » (٦٦) .

والجدير بالأهمية أن محمد عبده يجعل المحافظة على الدولة هي ثلاثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، ولذلك أهمية كبرى . فالدولة ، وإن كانت سلطتها مدنية ، فإن المحافظة عليها هو ثالث العقائد بالنسبة للمسلم ، لما في المحافظة عليها من صون لأرواح الناس وأعراضهم وممتلكاتهم . يقول عبده : « ٠٠ أن من له قلب من أهل الدين الاسلامي يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثلاثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكافلة ببقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها . وأنا ، والحمد لله ، على هذه العقيدة عليها نحيا وعليها نموت ٠٠٠ » (٦٧) .

٢ - سلطة العقل عند محمد عبده :

يؤكد محمد عبده على النظر العقلي ، ويجعله أصلاً دينياً أكده القرآن وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ . وهذا الأصل من الأصول الاسلامية يقدم على ظاهر النص الشرعي عند تعارض العقل والنقل . يقول عبده : فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلي ، والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح .٠٠ اتفق أهل الملة الاسلامية ، الا قليلا ممن لا ينظر اليه ، على أنه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه .٠٠٠ والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل . وبهذا الأصل ، الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ مهدت بين يدي العقل كل سبيل ٠٠ » (٦٨)

ولكننا لا نريد أن نضع العقل في مواجهة الشرع لنختار بينهما ، فذاك خيار تقادم تكراره .٠٠ ولكننا نريد أن نتوقف قليلا عند كلمة « عقل » التي يوردها عبده معرفة فيوقعها بذلك في ابهام شائع . ونسأل ما هو معنى العقل عند عبده ؟ هل يختلف دور العقل في العلوم الكسبية عن دوره في العلوم الدينية ؟ اذا استبعدنا كل هذه الزخرفات اللفظية التي تمجد العقل عند عبده نجد انه لم يخرج عن خط السلف في موقع العقل من العلوم الدينية . فكل العلوم الدينية عنده هي علوم قرآنية ، وليس بمقدور العقل أن يستقل بمعرفتها . يقول عبده : « ان العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد الهي ، الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله » (٦٩) فالعقل الانساني وان توصل الى التمييز بين الخير والشر ، الا انه لا يسلم من الوقوع في الضلال تحت وطأة الأهواء ، على حين أن الشرع منزّه بضمانه « المعصوم » ﷺ كما أن أغلب الناس من ناحية ثانية محتاجون الى هداية أوثق من هداية العقل وهي الهداية النبوية .

وبعد أن ألحق عبده العقل بالدين ، جعله تابعا في الآفاق التي يرتادها فما سكت عنه القرآن غيب لا يصح أن يتجرأ العقل على اقتحام أعتابه ، والكلام فيما سكت عنه القرآن جرأة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن « المعصوم » ﷺ . يقول : في

تفسير سورة القارعة — منتقداً من يحدد صفة الميزان : « قصار الأنظار الذين لا يعرفون قيمة للآيمان بالغيب ولا لحياء العقل من الله وإطراقه عن أن ينظر الى ما تشامخ من غيوب الله ، تعالى علمه وتعاظمت قدرته » (٧٠) ومن ناحية ثانية اذا نظرنا الى حدود العقل في العلوم الكسبية التي هي « في مقدور الانسان » بحسب عبارة عبده ، نجد انه يظهر لنا فيها بمظهر الفاعل القادر على انتاج المعلومات التي تمكنه من تغيير واقعه وتكييفه بحسب التطور . ولكن لا يجب أن تؤخذ ببهرجة القول في أن العقل هو فارس العلوم الكسبية . وذلك لأنه في العلوم الكسبية تحل الأسباب والمسببات محل النصوص الشرعية في العلوم الدينية . العقل هنا ، كما هو هناك في العلوم الدينية ، يفهم ويدرك فقط ولا يبدع معلومات ولا ينتجها . وظيفته تظل محصورة في استنباط علاقات جديدة بين أسباب ومسببات والتحكم فيها . هذا التحكم نطلق عليه أسماء مختلفة : اكتشاف . . . اختراع . .

وهكذا مهما مجدنا العقل فهو سلبي مقهور ، لا يستطيع بالنظر أن يقدم للانسان أفقا جديداً . لا ينتج حقائق الا فيما يقع تحت نظره . انه أداة فهم فقط ، نقدم اليه الحقائق الدينية فيستوعبها ويجهدها ، نقدم اليه عالماً محكوماً بالأسباب والمسببات فيكتشف ترابطها ويخترع .

ولا يمكننا أن نقول بابداع انساني الا في فكر يفسح فيه مجالاً للعلم اللدني ، وان كان هذا العلم لا ينفرد العقل بانتاجه .

★ ★ ★

□ الإصلاح !

توقفنا في مرحلة أولى عند عيوب مجتمع المسلمين في زمان محمد عبده كما ظهرت في نصوصه . ثم عرجنا على العوامل والأركان الفاعلة في المجتمع الانساني ، وصولاً الى خطة الإصلاح . فوجدنا أن عيوب المجتمع يحكمها سببان : عقائد منحرفة من جهة ، وفهم خاطيء لعقائد صحيحة من جهة ثانية . فما هي خطة اصلاح هذين الداءين ، اذا أخذنا بالاعتبار أن السلطة الدينية هي لسان الإصلاح ، والسلطة المدنية هي يد الإصلاح ؟

يوجه محمد عبده نظره الى الأمم الأوروبية ، البلاد المتمدنة ، ليستفيد من خبرتها وينظر في سبب تقدمها وثروتها ، يقول : « فعلينا أن ننظر الى أحوال جيراننا من الملل والدول ، وما الذي نقلهم عن حالهم الأول ، وأدى بهم الى أن صاروا أغنياء أقوياء . . . وما نحن بعد النظر لا نجد سبباً لترقيهم في الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم . فاذن أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا . أليس من البين انه لا دين الا بدولة ، ولا دولة الا بصولة ، ولا صولة الا بقوة ، ولا قوة الا بثروة ، وليس للدولة تجارة وصناعة ، وانما ثروتها بثروة أهاليها ، ولا تمكن ثروة الأهالي الا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب . . » (٧١)

وهكذا يجعل عبده العلم أساساً لكل تطور ورقي اجتماعي . العلم سبب الثروات الفردية والوطنية والقومية ، انه وراء القوة والصولة التي يتجلى بها العالم الغربي . ويتفنن محمد عبده بتجسيد العلم بصور فنية تقربه من الأذهان وتحببه الى الوجدان ، ولا يلبث أن يضعه في مصاف الواجب الذي لا بد منه . يقول : « نحن في زمان خرج فيه العلم من الأذهان الى الأعيان ، وتنزل من مرتبته الروحانية ، وتحلى في الصور الجسدانية . وأصبح يجول (العلم) بيننا في علاه ، وينادي . ألا من سائل فأعطيه ؟ ألا من فقير فأغنيه ؟ ألا من طالب سلطان فينا له ؟ ألا من محارب عدوان فنحدد نضاله ؟ علوم جديدة مفيدة ، هي من لوازم حياتنا في هذه الأزمان ، وكافّة عنا أيدي العدوان والهوان ، وأساس لسعادتنا ، ومعايير لثروتنا وقوتنا ، لا بد لنا من اكتسابها » (٧٢) الى أن يخلص الى القول بأن « العلم نافع لنا ، والجهل مهلك لأرواحنا وأبداننا ، (هذه) مسألة صارت عندنا من أدق النظريات » (٧٣) .

لا يختلف اثنان في أهمية العلم وأسبقيته على كل عمل واصلاح ، ولكن السؤال يطرح نفسه ، ما هو العلم المطلوب ؟ .

أراد عبده أن يخلص من نقد يمكن أن يوجه اليه ، كما وجه الى الخط السقراطي قبله ، نقد ملخصه أن العلم غير كاف للعمل . والدليل ، ها هم البشر لا يفعلون ما يعلمون صوابه . هذه القضية شارك بها مفكرو الاسلام وخاصة الغزالي ، ولكنها كانت بسيطة الى حد ما في القرون السابقة ، وقت كانت معركة الخير والشر في الانسان لا تخرج عن دائرة ذاته أي النفس دائرة ذاته أي النفس والهوى والشيطان ، وان خرجت فالى أبعد تقدير تتحرك في دائرة بيئته وعشيرته . ولكن معركة الخير والشر اليوم فارقت حتى الحدود الاقليمية في زمن ارتفعت فيها الموانع بين القوى والدول والقارات .

حتى يخلص عبده من انتقادات مشابهة لم يتوخ من العلم المطلوب — بشقيه العقلي والشرعي — مجرد تحصيل المعلومات ، بل أكد على الأثر التربوي التهذيبى الذي يشيعه في الانسان . لقد طلب وطالب علماً بمعنى التربية التي تسهم في تطبيع الانسان بملكات يفرضها الشرع ويفهمها العقل ويدعن لها . والتربية عنده تتم على مستويين : تربية العقول بتنقيتها من الاعتقادات الرديئة ، وتربية النفوس بترويضها على الصفات الفاضلة ، يقول عبده في الوقائع المصرية : « من المعلوم البين أن الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب ، والعناية بشأن التعليم فيها ، انما هو تربية العقول والنفوس . . . ومرادنا من تربية العقول اخراجها من حيز البساطة الصرفة وابعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة ، الى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة ، تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضار والنافع . . . هذا هو الركن الأول في المدارس والمكاتب . ومرادنا من تربية النفوس ايجاد الملكات والصفات الفاضلة في النفس ، وترويضها عليها . . . حتى يكون المتحلى بها ناشئاً على ما يوافق قواعد الاجتماع البشرى ولوازمه ، ومتعوداً عليه ، وهذا هو الركن الثاني . . . ولنترك البرهان على ذلك الى علم كل انسان به » (٧٤)

وهكذا نقل محمد عبده الاصلاح من الدائرة العلمية البحتة الى دائرة التربية العقلية الشرعية . فما هي هذه « التربية الشرعية العقلية » التي تجعل احساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه (٧٥) على حد تعبير محمد عبده ؟ ما هي هذه التربية الشرعية العقلية التي يطمح محمد عبده بأن توصله وتوصل معه شعوبنا وشرقنا الاسلامي الى جنتين : جنة منشودة وجنة مفقودة ؟

□ الجنة المنشودة والتربية العقلية :

الجنة المنشودة هي الغرب ، ذاك القوي القاهر الذي مزق ظلام القرون الوسطى بسلاح التنوير ، وامتلك قيادة الكون عندما تحكم في أسبابه ومسبباته لقد قدم التاريخ الغربي لمحمد عبده وغيره من قادة الاصلاح نموذجاً مثالياً . هذا هو الغرب - قبل أن يحتل صدر الكون - كان يعاني نفس مشاكل الشرق ، وبالتالي مشى معظم مفكري عصر النهضة على جادة غايتها : ماذا فعل الغرب لينهض ، ولا بد لنا نحن من المشي على آثاره للوصول الى ما وصل اليه .

نادى عبده ، تأسيساً بالغرب ، بالتربية العقلية التي تمكن في الفطرة العقلية للانسان قوانين الوجود القائمة على حكمة السببية . حارب عبده كل ما خرق هذه الحكمة الكونية ابتداء من العقائد ووصولاً الى القصص والروايات التي تقرأ للتسلية .

وقد سبق أن ذكرنا أراءه في العقائد التي تشبهه على العامة كالولاية والكرامة والشفاعة . بل أنكر كل ما يخرم قانون السببية أمام عقل الجماهير ، فتنكر للشفاعة - من أجل ذلك - معتبراً أنها تقف حائلاً بين العمل وعاقبته . الشفاعة بنظره تجعل المسلم غير المتمكن من أصول المعرفة الدينية يتواكل عن العمل والجهد ويستريح في ظل فكرة الشفاعة (٧٦) . ونحن اذ نحمد لعبده جهوده في تربية العقل المسلم على قوانين الحكمة الكونية ، نتوقف عن موافقته في اخضاع كل العقائد الاسلامية لقانون كوني هو قانون السببية . وخاصة أن العلم الحديث نفسه بدأ يبين أدلة جديدة على أن قانون السببية ليس سارياً على امتداد عالم الأجسام المادية، على الرغم من أنها مشهود واقع تحت الحس والمحسوس .

لذلك حين نلمس أن محمد عبده يحاسب العقائد الاسلامية ويزنها بميزان العلوم العقلية الكونية ، نقول له : ليتك حافظت على ثنائية العلوم التي طرحتها . فأبحت للعقل البشري ما هو مدني ، وتركت العقائد الشرعية في رعاية حمايتها الشرعيين . ولكن للأسف ، في حماس ثورة نقدية ، ضحى - عن وعي أو عن لا وعي - بأصول وعقائد اسلامية أثبتتها أئمة كبار كالشفاعة مثلاً .

أما الأساطير وأثرها في تكوين التفكير الأسطوري عند الشعوب فانا وإن كنا نوافقه على عدم جدواها فهي مضيعة للمال والوقت، الا أنها ليست بالضرورة العامل الأكبر أثراً

في تأخر البلاد ، ولن تحل مشاكل المجتمع الاسلامي الشرقي اذا منعنا المطابع من طبع كتب « أبو زيد وعنترة » ، فالمشكلة ليست في الكتاب وانما هي في القارئ . فالقارئ السوي يدخل الكتاب من أبوابه ، والمجتمع السوي يتناول المواضيع على استقامتها . ولكن اذا كان المجتمع مريضاً تحول كل شيء فيه الى باعث لمزيد من الداء . وها هي الأساطير اليوم تقفز الى واجهات كتب العالم « المتمدن » الذي يتغنى به عبده . يقول عبده في معرض الاشادة بالرقابة على كتب الأساطير والخرافات التي تضر بالعقول : « .. قد كانت جميع هذه الكتب بأصنافها تطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد ، ثم من عهد قريب ... صدرت الأوامر بأن لا يطبع كتاب في احدى المطابع الا بعد الحصول على رخصة تجيز الطبع ، وحجز في أثناء ذلك على طبع ما يخل بالديانة أو السياسة ليس الا ، وكان يصرح بطبع غير ذلك من أصناف القسمين الآخرين (أي كتب الأكاذيب الضرفة وكتب الخرافات) على انهما ليسا مما يخل بالدين ولا مما يناقض السياسة ، ولذلك كثر طبع الكتب في هذين القسمين .. وهذا من أضر المؤثرات في تأخر البلاد .. ولهذا فان الحكومة السنية قد وجهت عنايتها الى تطهير البلاد .. فصدرت أوامر نظارة الداخلية الجليلة بالحجز على طبع الكتب المضرة بالعقول ، « المخلّة بالأدب .. فمن كانت رغبته متجهة الى كتب « أبو زيد » وما معها من الكتب « كعنتر عبس » وغيرها عليه أن يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة ، كتاريخ « المسعودي » وتاريخ « اظهر أنوار الجليل » لحضرة رفاعة بك ، وتاريخ « الكامل » لابن الأثير .. » (٧٧) .

ان البرنامج التربوي الذي يقترحه محمد عبده في التربية العقلية يتوجه الى افراد الشعوب الاسلامية ، ولكن ومتى كانت ارادة التعليم وحدها كافية لنهضة علمية في البلاد ؟
ان العلوم العقلية التي هي أساس التطور الشامل للمجتمعات البشرية ليست رهنا بارادة الفرد المسلم .. المجتمعات الانسانية لا ترقى في معارج السبق المدني بارادة الأفراد وانما بتوفر امكانيات الدولة ومقدراتها .. ليت النهضة وقف على تعليم مدرسي وبرنامج علمي يدرس في مدارس وجامعات .

ولكن تبرز أهمية هذا الموقف الداعي الى العلم ، في انه يزيل من طريق المجتمعات المؤهلة للتقدم العلمي حواجز متوهمة أو مغرضة تنتشر بين الجماهير أو العامة باسم الدين .

ففي دعوة الأفراد الى الوعي العلمي ، دعوة للمشاركة بالحضور الكوني وهي شعلة تحرك وتشجذ عزائم الفاعلين والقادرين . ولنا أن نقتنع بأن التطور الزمني كفيل بتحريك رواكد العقول .

□ **الجنة المفقودة والتربية الدينية :**

يظل الزمن الاسلامي الأول جنة مفقودة في كل حلم اصلاحي .. الكل يبحث في تلك الجنة عن أصول وأسباب نجاحها الديني والدنيوي .. وكل من وجد سبباً نادى به ،

يحدوه أمل مبعثه الاعتقاد بأن تحقق هذا السبب أو هذا الظرف يكفل للدولة الإسلامية الأولى الظهور مرة أخرى في أرض الواقع .

ونادى الخط الذي حمل محمد عبده لواءه بالعودة الى الاسلام في بساطته الأولى ، بعيداً عن كل ما طرأ على دنيا المسلمين من ثقافات وتيارات .. ونظر هذا الخط الى أفعال وسلوكات الجماهير أو عامة المسلمين في أواخر الدولة العثمانية ، أي نظر الى سلوك المسلم - والعقل في أوج غفوته - وقال : أساس هذا السلوك الخاطيء عقائد منحرفة . وحمل الوعي الديني للانسان المسلم كل أحمال السنين الماضية وكل أثقال القوى الأجنبية المتزايدة . فلنستمع الى عبده يقول : « واذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب هذا الخذلان لا نجد الا سبباً واحداً ، وهو القصور في التعليم الديني » (٧٨) .

ويمكن أن نجمل التربية الدينية التي يريدها عبده في نقاط أربع :

النقطة الأولى : اصلاح العقائد :

هذا موضوع سبق تناوله مرات عديدة في هذا البحث (فليراجع) ، ونقطة البداية في اصلاح العقائد هو اصلاح اللسان ، يقول : « فان اصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لاصلاح عقائدنا ، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذي صدهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم ، وأقوال أسلافهم ... وبدون ذلك لا نصل الى فهم أسرار شريعتنا ، بل تسد في وجوهنا طريق الوصول الى الحقيقة منها » (٧٩) .

النقطة الثانية : توحيد التربية الدينية :

ينطلق عبده من مقولة أساسية يراها ، وهي : أن وحدة التربية الدينية تؤدي الى وحدة حقيقية بين أفراد المجتمع الواحد ، توصل الى نوع من الاتحاد يكفل النفع الاجتماعي ويبعد الأذى عن مجتمع المسلمين . ويقول عبده مؤكداً على معنى أن الاعتقاد هو واسطة في الاتحاد : « .. يسمى (صاحب العقيدة) جهده في نشر عقيدته .. فهو يسعى في ضم جميع الناس الى نفسه في الاعتقاد ، حتى يكون واسطة في الاتحاد على التعاون ، والانتفاع الذاتي ، والأمن من المضار .. » (٨٠) .

ثم يفصل عبده برنامجاً تربوياً كاملاً يتضمن المناهج والمواد والتدريس ودرجات المتعلمين ، ومؤكداً أن وحدة التعليم هي الطريق الى توحيد كلمة الاسلام ، يقول :

« ان اصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العثمانيين . بل هو الذي سيفضي في أسرع وقت الى توحيد كلمة الاسلام » (٨١) .

ويتوسع عبده في شرح مناهج التعليم فيحصر تعليم الطبقتين الأولى والثانية ببعض الكتب ، أما الطبقة الثالثة فيشمل تعليمها الفنون وليس الكتب ، وبعد أن يحدد عبده المناهج نجده لا ينصح بأي كتاب من كل الكتب الإسلامية على امتداد سنواتها يكون قادراً

وصالحاً للتعليم الديني ، فيقول : « أما وضع الكتب للطبقتين فسهل جداً ، لو كلف أحدنا بوضعها لتيسر له ذلك بمعونة الله عز وجل في أقرب وقت يمكن ، متى صدر الأمر بذلك ، تحت نظر مولانا شيخ الاسلام (٨٢) » .

لا يكتفي عبده بتوحيد المعرفة مقدمة لتوحيد الكلمة ، بل يطلب توحيد التربية التي تشمل ناحية عملية الى جانب مناحيها النظرية . . والطالب لا ينجح في الامتحان بمجرد فهمه للمعلومات بل يراقب سيرته ليتحرى من كون سلوكه مضبوطاً على الأقوال (٨٣) .

ونلاحظ عند مطالعة المنهج المقترح لمحمد عبده أنه يكرر التأكيد على وجوب استخدام لغة خطابية تحرك نفوس الطلاب في جميع المواد والكتب المتداولة ككتب العلوم الاسلامية أو التاريخ الاسلامي ، وعامة كتب المنهج الذي يطلب عبده أن تتبناه الدولة يقول مثلاً : « يجب أن يكون التدريس في أغلب العلوم المتقدمة . . أشبه شيء بالخطابة ، ترسل في المعاني الى القلوب لتزها وتستنفرها من مقار الخمول والغفلة الى مقامات التنبه والبصيرة » (٨٤) ويقول أيضاً : « ويكون مدار الكلام في الكتابين (كتاب يفصل الحلال والحرام - كتاب يبين الحكم لبعض الأحكام الدينية) على ما يضرم الحمية في القلوب ، ويرفع النفوس الى مقام لا تطلب فيه الا معالي الأمور » (٨٥) كما يقول : « ويودع فيه (كتاب تاريخ ديني) من العبارات ما يحرك القلوب الى طلب المفقود » (٨٦) .

والأمثلة على ذلك كثيرة في هذا البرنامج الاصلاحى ، وهذا مستغرب من رجل يجعل النظر العقلي أول أصل اسلامي ويصر على دور العقل في الاقناع . . ولكن ذلك يؤكد لنا من جديد ، أن معظم رواد الاصلاح في عصر النهضة كانت تتحكم في مشاعرهم نزعة استخفاف وتعال على الانسان العامي الشعبي . . لقد تحول الشعب الى ذاك « الآخر » الذي هو سبب كل الانحطاط والتخلف ، هو ذاك الجاهل صاحب العقل الأسطوري ، ذاك البليد النائم عن الأمور العامة والأحاسيس القومية ، ذاك المخلوق الذي يجب أن نقنن له كل المعطيات ، فنحرك أحاسيسه بلغة وجدانية مدروسة ، ونستنهض همته بقيم منتقاة ونسوقه الى الغايات المطلوبة .

وكان من نتيجة هذا الموقف ، أن تجمع المتنورون المثقفون حول هؤلاء الدعاة وابتعد عنهم كل العامة ، لقد أحدثت نظرياتهم شرخاً عميقاً بين المتعلمين وبين الجماهير والعوام . فاهمل العامة الدعاة المصلحين والتصقوا أكثر فأكثر برجال الصوفية - وان كان منهم الدجالون المشعوذون - لأن المتصوفين ظلوا ملتصقين بواقع الانسان العامي ، متبنين لقضاياه .

لقد كان عبده يتقلب في المقولات بحسب هواه الراهن ، فها هو عندما مشى مع الوطنيين ينادي بالحرية والتحرير والوطنية . ويكتب في (الوقائع المصرية) مفصلاً موجبات حب

الوطن . فيقول مثلاً : « ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة » ويقول : « . . . وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه » (٨٧) . الى غير ذلك من كتاباته السياسية (٨٨) . ولكن بعد أن عاد من المنفى الى مصر وتقرر لديه سلطة الاحتلال نراه يتوجه الى الشعب بمقولة ثورية غير الوطنية ألا وهي الدين . فيقول مثلاً : « ومن ظن أن اسم الوطن ، ومصلحة البلاد ، وما أشبه كل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في انهاض الهمم وسوقها الى الغايات المطلوبة منها ، فلقد ضل سواء السبيل » (٨٩) .

ونتساءل أين أصبح التحرر والحريات وكيف سيتحقق مشروعه الاصلاحى الرامى الى تربية دينية برعاية الدولة في ظل سلطة احتلال ؟ وننقل كلام محمد عمارة لأنه يوضح موقف عبده من موضوع علاقة الحاكم بالمحكوم وسلطة الاحتلال ، يقول : « فعندما قام (محمد عبده) برحلته الشهيرة الى الجزائر وتونس سنة ١٩٠٣ م ، سبقته الى دار الحاكم الفرنسى للجزائر تقارير من بعض الموالين لفرنسا في مصر ، تتهمه بأنه يستهدف من رحلته هذه اضعاف نفوذ فرنسا في شمالي افريقيا ، لأنه من أنصار سلطة الاحتلال الانكليزي . . . غير أن الموقف . . . والنصائح التي توجه بها (عبده) الى علمائها (أي علماء الجزائر) أكدت أن الرجل داعية لا يمل الدعوة الى أن يبتعد علماء الدين عن الاشتغال بأمور السياسة العليا ، والتعرض لسلطات الاحتلال ، وأن يقصروا عملهم وهمهم على الاصلاح الديني بصرف النظر عن الوطن الذي يعيشون فيه ، والسلطة المستعمرة التي تحكم هذه الأوطان » (٩٠) .

النقطة الثالثة : رعاية الدولة للمشروع الاصلاحى التربوي :

بعد أن ألقى عبده السلطة الدينية رافضاً الاعتراف لأحد بسلطة على أحد الا النصيحة والموعظة الحسنة ، نجده هنا يحول البرنامج الاصلاحى التربوي الى سلاح يدعو الدولة لاستخدامه محافظة على وحدتها وسيادتها . وكل ذلك تقليداً للغرب الذي يحتل أهواء المسلمين بالتربية الموجهة التي يقدمها في مدارس عبده الدولة العثمانية قائلاً : « . . . كل هذه المساعي الأجنبية . . . تخشى عواقبها . . . ولا سبيل الى ذلك (أي تطهير قلوب الرعايا من درن الأغيار) الا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم فلا بد من النظر في وسيلة لتربية اللبنانيين على المشرب العثماني » (٩١) .

ويؤكد عبده للمراجع المختصة أن وحدة التعليم هي الطريق الى توحيد كلمة الرعايا المسلمين وبالتالي كلمة الاسلام ، يقول : « ان اصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العثمانيين بل هو الذي سيفضي في أسرع وقت الى توحيد كلمة الاسلام » (٩٢) .

ويجعل عبده التعليم الديني بالاضافة الى أهميته في توحيد كلمة المسلمين ، هو السلاح الكافل وحدة الدولة ، لأن التعليم الديني يزرع في وجدان المسلم أن المحافظة

على الدولة هي ثلاثة العقائد كما أن الدين يعلمنا معنى الطاعة التي تكفل استمرار سيادة الدولة والتفاتنا الى شؤونها السياسية والحكم ، يقول : « لا حافظ للدولة ولا وافي للملة سواء (التعليم الديني) ٠٠ فهو أعود بالفائدة مما يصرف لأي عمل سياسي خارجي أو داخلي ، فانه لا سياسة الا بالقوة ، ولا قوة الا بالنجدة ، ولا نجدة الا بالوحدة ، ولا وحدة الا بالطاعة ولا حقيقة للطاعة الا بالعقيدة الحسنة ، ولا عقيدة الا بحياة الدين ، ولا حياة للدين الا بالتعليم » (٩٣) فان من تتبع قوانين التعليم في الممالك الأوروبية رأها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية ٠٠ » (٩٤) .

وهكذا لا يجد عبده باباً تخرج منه شعوبنا من ظلمة الفقر والجهل والتخلف الا التربية الدينية ، كما انه ليس للمسؤول باب يدخل منه الى توحيد صف المسلمين الا التربية الدينية .

النقطة الرابعة : التعليم الديني للأولاد :

ان نقطة البداية لكل تعليم عند عبده هو التعليم الديني وها هي الممالك الأوروبية - هاجس رجال الاصلاح - قوانين التعليم فيها تبدأ بالتربية الدينية ، يقول « فان من تتبع قوانين التعليم في الممالك الأوروبية رأها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية » (٩٥) .

فالتعليم الديني هو نقطة البداية لكل تعليم ، حتى انه أوجب في تعليم الأولاد لثلاث تنحرف عقائدهم بالتعرض لكل أنواع المداخلات الغريبة ، يقول : « ٠٠ ان معرفة قواعد الاسلام بالنسبة لأطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به ٠٠ » « ٠٠ فأول واجب عليه تمكين اعتقاده في عقول أولاده ٠٠٠ » (٩٦)

★ ★ ★

الغاتمة :

تجلى محمد عبده مصلحاً اجتماعياً ، سجل بعين وقلم الناقد الاجتماعي لمحات من تاريخ شعوب البلدان الاسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ٠٠٠ أكثر من سرد روايات وقعت معه أو مع رفاقه وصحبه ومعارفه ٠٠ روى عن تجار ومصورين وأناس عاديين ٠٠ كنا نلامس في مروياته حياة مجتمع وتفكير شعب ٠٠

جعل محمد عبده المجتمع معياراً للحقائق ، فنظر الى العقيدة في مردودها الاجتماعي والنفسي على الفرد والبيئة ٠٠ أطلق حكمه عليها من مدى أثرها في الاجتماع البشري . لذلك كانت كل كتاباته تطبيقاً لموقفه الاجتماعي ، وحاملة لمشروعه الاصلاحى . فلا تكاد تفوته مناسبة في استطرادات اجتماعية ، يرشد ، يهدي ، يعلم المسلم حدود العقل وضرورة مسايرة التطور الزمني البشري .

وتجاوز عبده ميدان الأقوال الى خضم الأعمال فتقلب في انتسابات سليمة ومشبوهة منها دخوله المحفل الماسوني ، وعلى الرغم من اعتذار محمد عمارة عنه بأن الماسونية لم

تكن قد عرفت أبعادها اليهودية بعد ، الا انها تركت في تكوينه الثقافي أحاسيس ومشاعر مستغربة منها هذا الحنان المجاني على اليهود ، فقال مثلاً في اضطهاد المسيحية لليهود : « فصدر الأمر في ٣٠ مارس ١٤٩٢ بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان وعلى أي حال كان ، يجب أن يترك بلاد اسبانيا قبل شهر يوليو ٠٠ وأبيع لهم أن يبيعوا ما يملكون من عقار منقول بشرط أن لا يأخذوا في الثمن ذهباً ولا فضة ، وإنما يأخذون عروضاً وحوالات ٠٠٠ وهكذا خرج اليهود تاركين كل ما يملكون - بأرواحهم ، على أنه لا نجاه لكثير منها ، فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر ٠٠ » (٩٧) .

كابد محمد عبده الاصلاحات في الأزهر والمحاكم والقضاء ٠٠ ووجد في حياة الناس بفتاويه ، وانقسم حوله عالمه بين مؤيد ومعارض ٠٠ عارضه الوطنيون بتهمة ممالأة الانكليز ٠ وعارضه المحافظون لتسمحه في الفتاوى ٠٠ وعارضه الخديوي لأسباب صفاتية ولعلاقته بالانكليز ٠ وقد عانى عبده من مواقف الجميع تجاهه ومات حزيناً يداخله شعور بالاحباط ليس جديداً عليه ٠

محمد عبده وغيره من رجال الاصلاح - أصابوا أم سقطوا - فان وجودهم حتمي على رأس هذه المرحلة التاريخية ، وما وجود المصلحين على رأس كل قرن الا دليل على حياة الشعوب وحياة حضارتها وعقيدتها ٠ وتتجلى الدعوة الى الاصلاح فرض كفاية في دنيا المسلمين اذ لا بد لكل جيل من داع أو دعاة الى تصحيح المسار وربط الماضي بالمستقبل ٠٠ ويمضي كل جيل مع دعائه ومصلحيه ، ليولد جيل جديد يحمل في أحشائه - من جنسه ومن جيله - دعائه ومصلحيه ٠ وترتفع الأجيال السابقة منارات في ذاك الطريق الواحد ، طريق وجدان الانسان المسلم منذ فجر الدعوة المحمدية الى قيام الساعة ٠

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - يراجع بشأن الدولة العثمانية :
- الدولة العثمانية ، دولة اسلامية مفترى عليها ، د عبد العزيز محمد الشناوي ٠ مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٨٣ ٣٠ مجلدات ٠
- كما يراجع الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤) - (١٩١٤) د محمد أنيس ٠ مكتبة الانجلو المصرية ٠
- ٢ - حياة الامام محمد عبده استقيناها من المصادر الآتية :
- الأعمال الكاملة ، محمد عمارة ٠ المؤسسة العربية للدراسات والنشر مقدمة الجزء الأول صص ١٧-٩٩ ٠
- رائد الفكر المصري الامام محمد عبده ، د عثمان أمين ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية - ١٩٦٥ صص ٣٣ - ٦٧ ٠
- زعماء الاصلاح ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربي - بيروت صص ٢٨٠ - ٣٣٧ ٠
- الفكر العربي في عصر النهضة ، البرت حوراني ٠ الطبعة الثانية دار النهار للنشر ش.م.ل. بيروت صص ١٦٢ - ١٩٧ ٠
- مذكرات الامام محمد عبده ، تحقيق : طاهر الطناحي ، دار الهلال د. ت. صص ٠ (١٦ - ٣٥) ٠
- « الامام محمد عبده » عبد الحليم الجندي ، دار المعارف مع سلسلة اعلام الاسلام ١٩٧٩ ٠
- ٣ - ديوان النهضة - الامام محمد عبده ٠ دار العلم للملايين ط ٠ أولى ١٩٨٣ ، ص ٢٣٤ ٠ يعرفنا محمد عبده في ترجمته الذاتية لحياته على الشيخ درويش فيقول :

أحد أخوال أبي واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار
إلى صحراء ليبيا ، ووصل في أسفاره إلى « طرابلس
الغروب » وجلس إلى السيد محمد المدني والد الشيخ
« ظاهر » المشهور ، الذي كان قد سكن « الاستانة »
وتوفي بها ، وتعلم عنده شيئاً من العلم ، وأخذ عنه
الطريقة « الشاذلية » وكان يحفظ (الموطأ) وبعض
كتب الحديث ، ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من
أسفاره إلى قريته هذه واشتغل بها يشتغل به الناس
من فلاح الأرض وكسب الرزق بانزراعة .

٤ - را . الإعلام - للزركلي ١٨٣/٢ . حسن الطويل
(١٢٥٠ - ١٣١٧ هـ = ١٨٣٤ - ١٨٩٩ م) حسن
بن أحمد بن علي ، أبو محمد الطويل : فاضل مصري
مالكي موصوف بانورع تعلم بطنطا ثم بالأزهر . اشتغل
بالتدريس ، ثم كان مفتشاً في وزارة المعارف ولما
قام « المهدي » بالسودان جاهر بنصرته . له (عنوان
البيان) في التفسير طبعت مقدمته .

٥ - را . كتاب الشرق في فجر اليقظة صورة اجتماعية للعصر
من ١٨٧١ إلى ١٩٣٩ ، أنور الجندي ، مكتبة الانجلو
المصرية د . ت . (ص ص ٣٠ - ٣٣)

٦ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، محمد عمارة ٢٢/١ ،
ص ص ٣٥ - ٣٦ . كما يراجع تفسير المنار ، محمد
رشيد رضا ، دار المعرفة - بيروت ١٣٨/٥ - ١٣٩٠ كلامه
عن الجمعية الماسونية ، نفوذها اليهودي وأثرها في
الانقلاب العثماني وكيد اليهود للمسلمين قديماً وحديثاً .

٧ - م . ن . ٢٥/١ .
- كما يراجع الفكر العربي في عصر النهضة ، البيرت
حوراني ص ص ١٦٦ - ١٦٧ .

٨ - « الإمام محمد عبده » ، عبد الحليم الجندي . ص ٤٤ .
٩ - م . ن . الصفحة نفسها .

١٠ - رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده ، د . عثمان
أمين ص ٤٨ .

- كما يراجع الأعمال الكاملة ، محمد عمارة ٢٦/١ .
- ويراجع أيضاً « الإمام محمد عبده » عبد الحليم
الجندي ص ٤٩ .

١١ - زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، أحمد أمين
ص ٣١٠ .

١٢ - م . ن . ص ٣١١ .

١٣ - م . ن . ص ٣٢٠ .

١٤ - تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، دار المعرفة -
بيروت - الطبعة الثانية د . ت . ١٠/٢٤٠ - ٢٤١ .

١٥ - الأعمال الكاملة ، محمد عمارة ٢٨/٣ .

١٦ - م . ن . ٢٨٦/٣ .

١٧ - م . ن . ٤٣٥/٤ - ٤٣٦ .

١٨ - م . ن . ٤٢٥/٤ .

١٩ - رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده ، د . عثمان
أمين ص ٧٨ - ٧٩ .

٢٠ - الأعمال الكاملة ، محمد عمارة ١٩٦/٣ - ١٩٧
(الفقه والتفهاء) .

٢١ - م . ن . ١١٨/٣ .

٢٢ - م . ن . ٥٢٥/٣ .

٢٣ - م . ن . ٥٢٦/٣ .

٢٤ - م . ن . ٥٢٥/٣ .

٢٥ - م . ن . ٥٢٦/٣ .

٢٦ - م . ن . ٢١١/٣ .

٢٧ - تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ٥٧/١ .

٢٨ - الأعمال الكاملة ، محمد عمارة ٢٢٧/٣ .

٢٩ - م . ن . ٤٦٦/٣ .

٣٠ - م . ن . ٤٦٦/٣ .

٣١ - م . ن . ٢٣٠/٣ .

٣٢ - م . ن . ، الصفحة نفسها .

٣٣ - م . ن . ٣٤٠/٣ .

٣٤ - م . ن . ٢٨٣/٣ .

٣٥ - م . ن . ٤٨١/٣ - ٤٨٢ .

٣٦ - م . ن . ١٥٥/٣ .

٣٧ - م . ن . ٢٢٩/٣ .

٣٨ - م . ن . ٣١٧/٣ .

٣٩ - تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ١١٠/٢ .

٤٠ - الأعمال الكاملة ، محمد عمارة ٤٨٦/٣ .

٤١ - م . ن . ٤٨٦/٣ - ٤٨٧ .

٤٢ - م . ن . الصفحات نفسها .

٤٣ - م . ن . ٥٣٥/٣ ، و ٤٤٨/٣ - ٤٤٩ مقالاته في تطور
الاديان .

٤٤ - م . ن . ٢٧٧/٣ .

٤٥ - م . ن . ٢٧٩/٣ .

٤٦ - م . ن . ٣٩٨/٣ .

٤٧ - م . ن . ٣٩٦/٣ - ٣٩٧ .

٤٨ - م . ن . ٣٩٨/٣ - ٣٩٩ .

٤٩ - م . ن . ٤٢٠/٣ - ٤٢١ : وظيفة الرسل عليهم السلام .

٥٠ - م . ن . ٤٢٥/٣ .

٥١ - م . ن ٤٤٧/٣ .

٥٢ - م . ن ٢٠١/٣ - ٢٤٠ رد محمد عبده على سيد هانوتو .

٥٣ - م . ن ٢٥١/٣ - ٢٥٢ .

٥٤ - م . ن ٢٩٣/٣ .

٥٥ - م . ن ٢٨٥/٣ - ٢٨٦ .

٥٦ - م . ن ٢٨٨/٣ .

٥٧ - م . ن ٢٨٩/٣ .

٥٨ - م . ن ٢٦١/٣ .

٥٩ - م . ن ٢٧٢/٣ .

٦٠ - م . ن ٢٨٨/٣ .

٦١ - م . ن ٢٤٨/٣ - ٢٤٩ .

٦٢ - انظر القرطبي ٢٧٩/٣ - ٢٨٠ .

٦٣ - الأعمال الكاملة ، محمد عمارة ٢٨٧/٣ .

٦٤ - م . ن . الصفحة نفسها .

٦٥ - ٣٤٩/٣ .

٦٦ - تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ٣٦٣/٤ .

٦٧ - الأعمال الكاملة ، محمد عمارة ٧٢/٣ .

٦٨ - م . ن ٢٨٢/٣ .

٦٩ - م . ن ٤٢٦/٣ .

٧٠ - م . ن ٤٩٣/٥ .

٧١ - م . ن ٢٠/٣ .

٧٢ - م . ن ١٨/٣ .

٧٣ - م . ن ٢٢/٣ .

٧٤ - م . ن ٢٧/٣ ، كما يراجع بشأن التعليم عنده

الأعمال ٢٨/٣ (الممالك الأوروبية) ٧٤/٣ ، ٤٢/٣

وما بعد مقال : ما هو الفقر الحقيقي في البلاد .

٧٥ - م . ن ٤٣/٣ .

٧٦ - يراجع بشأن الشفاعة عند محمد عبده :

- تفسير المنار ٤٤٣/٨ (قاعدة الشرك الأساسية

ان النجاة تكون بواسطة الشفعاء) .

م . ن ١٢١/١ (الشفاعة تنافي التوحيد . مشركو

اهل الكتاب اعتمدوا على الشفعاء بالنجاة) .

م . ن ٣٣٦/٤ (سؤال الله بالانبياء والطلابين فيه

نزاع) .

- م . ن ٣٢/٣ - ٣٣ (تاويل الشفاعة بحسب

ابن تيمية) .

٨٣ - يراجع بشأن التربية :

- الأعمال ٥١٦/٥ (ما يجب على العلماء ان

يتعلموه) .

- م . ن ٧٧/٣ - ٨٥ (لائحة اصلاح التعليم

العثماني) .

- م . ن ٩٥/٣ - ١٠١ (لائحة اصلاح القطر

السوري) .

- م . ن ١٠٥/٣ - ١٢٢ (مشروع اصلاح التربية

في مصر) .

- م . ن ١٣٩/٣ - ١٥٥ (في العلم الاسلامي

والتعليم) .

٨٤ - م . ن ٨٣ / ٣ .

٨٥ - م . ن ٨٠ / ٣ .

٨٦ - م . ن . الصفحة نفسها .

٨٧ - را . « الامام محمد عبده » ديوان النهضة . دار

العلم للملايين ص ١١٦ - ١٢٧ .

٨٨ - را . الأعمال الكاملة ، محمد عمارة الجزء الاول :

الكتابات السياسية .

٨٩ - م . ن ٧٢/٣ .

٩٠ - م . ن ٨٧/١ - ٨٨ .

٩١ - م . ن ٩٥/٣ .

٩٢ - م . ن ٨٤/٣ .

٩٣ - م . ن . الصفحة نفسها .

٩٤ - م . ن ٢٨/٣ .

٩٥ - م . ن . الصفحة نفسها .

٩٦ - م . ن ٥٧/٣ .

٩٧ - م . ن ٢٧٠/٣ - ٢٧١ .

★ ★ ★